العرب
الثلاثاء 2020/11/03
السنة 43 العدد 11870

بالرسوم المسيئة عثرنا على العدو

سعد القرش
روائي مصري

لم نكن بحاجة إلى "نصائح" الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون، لكي يتخذ هيئة المعلم، ويمنحنا درجة من عشرة على إجاباتنا الحضارية في كراسة الامتحان، ويسجل توصية بأن الإسلام اليوم في أزمة، بالخلط بين جوهر الدين وسلوك البعض من المسلمين. استعلاء فرنسي يستند إلى رصيد استعماري دام لم تمرّ به نيوزيلندا، فكانت رئيسة وزرائها جاسيندا أرديرن أكثر رشدا، وعالجت بحكمة آثار جريمة الإرهابي الأسترالي المقيم في نيوزيلندا برينتون تارانت، حين نفذ هجومين على مسجدين بمدينة كرايستشيرش في مارس 2019. تضامنت الرئيسة مع المسلمين، في انحياز إنساني ينصف الضحية، وينكر على السفاح حلمه بتحقيق الشهرة بذكر اسمه، فاكتفت بوصفه بأنه مجرم قاتل إرهابي.

لا تلزمنا نصائح ماكرون، فعقلاء المسلمين، منذ زمن، يعرفون حقيقة المأزق بين العقل والنقل، بين الانتماء إلى قيم عصرية والاستلاب خضوعا لأزمنة تعجز عن تقديم إجابات عن أسئلة متجددة. وقد استراحت الملايين بمعايرة يكاد يلخصها شعار "لا تتهمنا بالعنصرية يا ماكرون فأنت عنصري". وتجلى الغضب الإسلامي في أمرين: أولهما الإقرار الضمني بوجود جريمة، مع منع الآخر من الكلام عنها، تطبيقا للمثل المصري "أدعو على ابني وأكره مَن يقول: آمين". والأمر الثاني هو تسويغ القتل والذبح باعتبارهما ردّ فعل على إهانة الإسلام ورسوله بالرسوم الكاريكاتيرية المسيئة. ويدل الأمران على بحث العاجز، قليل الحيلة، عن عدو مناسب، وقد وجده في ماكرون وفرنسا.

في فرنسا والغرب عموما قوانين تحاكم المتهم بمعاداة السامية، وتطارد المشكك في أعداد ضحايا الهولوكوست. أما رفعنا لراية ازدواجية معايير حرية التعبير، والمطالبة بمنح مقدساتنا حصانة مماثلة، فهو شأن لا يخص ماكرون الذي نفرح بمعايرته، في استسهال يؤكد عدم الإحاطة بصعود الاتجاه نحو صنع هذا الإله الصهيوني الذي لا يمسّه نقد. لم تكن معاداة السامية والإقرار بالهولوكوست بهذا الصلف حتى نهاية ستينات القرن العشرين. وبعد انتصار العدو في عدوان 1967، اختلقت القوة المفرطة غطاء أخلاقيا يتذرع بمظلومية تاريخية، جريمة أوروبية لسنا مسؤولين عنها، وهي الهولوكوست. وتم مدّ الخط إلى نهايته بإقرار قوانين تعاقب من يفكر ويبحث هناك. فماذا فعلنا هنا؟

الإساءة إلى الرسول لا تسوّغ القتل، واتهام ماكرون بازدواجية المعايير دليل جهل بطبيعة محظورات ليس بينها الأديان التي يتمتع الغربي بحرية البحث والنقد والسخرية منها ومن ورموزها، فالدولة لا تتبنى أي دين

فقدنا أوراقنا، بما فيها ما أقرته المنظمات الدولية. في عام 1975 أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة القرار رقم 3379، وينص على أن "الصهيونية هي شكل من أشكال العنصرية والتمييز العنصري". تزامن القرار مع توجّه مصر نحو المدار الأميركي، وميلها إلى الفلك الإسرائيلي، ويتلقى كلا الطرفين المصري والإسرائيلي معونة من الراعي الأميركي، وصار العدو صديقا يضمن حياد مصر كلما راق له العدوان على الفلسطينيين، وضرب المفاعل الذري العراقي، وحصار بيروت. وانقسم العرب، ونقلوا مقر الجامعة إلى تونس، وتسلل العدو إلى دول أفريقية كانت ظهيرا لمصر. ومن آثار "السلام" ضغط الراعي الأميركي لإلغاء قرار اعتبار الصهيونية حركة عنصرية، وألغي في ديسمبر 1991. مهما تبلغ القوة فإنها تتوسل بذرائع أخلاقية لا تلبث أن تصير قوانين ملزمة، وقد اشترطت إسرائيل للمشاركة في مؤتمر مدريد عام 1991 أن يلغى القرار 3379. فهل تدعم مظاهرات الرفض لتصريحات ماكرون تشريعا دوليا يحظر المساس بالإسلام؟ ربما يجادل فرنسيون مستاؤون من تكرار ذبح مواطنيهم، على أيدي مهووسين مسلمين، بالسخرية من المقاطعة الانتقائية: كيف تقاطعون بضائع دولة تشتهونها؟ هل يتخلى المتجنسون وحاملو الإقامة عن مكتسباتهم ويلتحقون بدار الإسلام؟ قبل الزهد في بضائعنا لماذا تلقون بأيديكم إلى التهلكة وتقامرون بأرواحكم في سبيل التسلل إلى شواطئنا؟ كيف يجتمع اشتهاء وكراهية تدفع سلفيين إلى الإعلان عن الحلم برفع الأذان من فوق برج إيفل؟

العدو الصهيوني فرض شروطه، وألغى القرار 3379، ونجح في ما تعجز عنه مظاهرات أثارت عنصرية مضادة. استرحنا في مصر من اقتران نهاية خطبة الجمعة بالدعاء بهلاك اليهود والنصارى، ولكن كتب "الفقه" البشري المعتمدة تتضمن هذا الخطاب. وهناك "فقه" يمشي في الإنترنت، ويقتات بالكراهية، وأستشهد بنموذج "عصري" لهذا الفقه، ويمثله الدكتور أسامة المراكبي، ويعرّف نفسه بهذه السيرة الموجزة: حاصل على الدكتوراه في أصول الدين من جامعة الأزهر، تخصص التفسير وعلوم القرآن، وعمل أستاذا مساعدا بكلية أصول الدين والدعوة الإسلامية في جامعة الأزهر، وبكلية الشريعة والأنظمة في جامعة الطائف. كتب في نهاية أكتوبر 2020 تحت عنوان "حرج زائف" ما يحاول البعض كتمانه.

هذا الحرج يشرحه المقال "أصول الإسلام أن من مقصود الشرع الشريف تحقير المشرك وتحقير معتقده"، "إنما المشركون نجس"، "أولئك كالأنعام بل هم أضل"، "أولئك هم شرّ البرية"، "أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين".

لدى الدكتور أسلحة أخرى، ولكنه قنع بإشارة "...إلخ". وتلك معان لا يستسيغها أصحاب دعوات التعايش السلمي وقبول الآخر... ويجدون في صدورهم حرجا بالغا من مئات الآيات في القرآن الكريم التي تضرب للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء، فيحمل الحرج بعضهم على تجاوزها.. مجاملة للذوق الليبرالي العام، وفرارا من الحق الذي أنزل الله. هكذا يعلم طلابه أصول حرب عقائدية لن تكتفي نيرانها بساحة الاشتباك مع "العدو" الفرنسي.

الإساءة إلى الرسول لا تسوّغ القتل والذبح، واتهام ماكرون بازدواجية معايير حرية التعبير دليل جهل بطبيعة محظورات ليس بينها الأديان. يتمتع الغربي بحرية البحث والنقد والسخرية من الأديان ورموزها، وصولا إلى المسيح، فالدولة لا تتبنى أي دين، وتقف على مسافة واحدة من معتنقي الأديان ومنكريها. وفي خطاب الشيخ الدكتور أسامة المراكبي تذكير بسابقيه ممن حرضوا على قتل مسلمين بحجة الكفر. أفتى عمر عبدالرحمن الأستاذ بجامعة الأزهر بكفر أنور السادات، فتم اغتياله. وأفتى أستاذ العقيدة بجامعة الأزهر محمود مزروعة بكفر فرج فودة فاغتيل، وبعد قتله شهد مزروعة، مع محمد الغزالي في المحكمة، ببراءة القتلة، واتهم القتيل بجحود الشرع، "لهذا يقتل حدا".

للقتل والذبح والحرق دوافع غير العدو الحالي "ماكرون". كانت صحيفة "شارلي إيبدو" في عامها الحادي عشر وماكرون في عامه الرابع يوم اغتيال السادات. ليس لفرنسا ذنب في قتل فرج فودة ومحاولة ذبح نجيب محفوظ. السادات وفودة ومحفوظ لم يسيئوا إلى الدين، إلا وفقا لفهم مشايخ يؤيدون الإرهاب، وقد اعتذر البعض عن قتل السادات، فكيف ينالون المغفرة من قتيل؟ لم تموّل فرنسا عملية قتل 118 من الشرطة والمدنيين، في هجوم عيد الأضحى 1981 على مديرية الأمن بأسيوط. نفذ الجريمة عاصم عبدالماجد ورفاقه، وفي مؤتمر «نصرة سوريا» بحضور محمد مرسي، في يونيو 2013، طاف القاتل استاد القاهرة لتحية الجماهير. فأي مصير كان ينتظرنا؟

إرهابي نيس والواقفون وراءه

الحبيب الأسود
كاتب تونسي

الشاب التونسي الذي لم يتجاوز الحادية والعشرين من عمره، والذي استقل أحد قوارب الموت في رحلة هجرة سرية نحو لامبادوزا، ومنها إلى باري، حيث عبر الأراضي الإيطالية إلى فرنسا، واتجه مباشرة إلى مدينة نيس، وفيها بحث عن كنيسة نوتردام، وقضى ليلته بالقرب منها، ليهاجم روادها من المصلين في ساعات الصباح الأولى، ماذا يمكن أن نقول عنه؟

هل هو فتى مغرر به وتم استغلال حالة اليأس، التي عادة ما تصيب أنداده من أبناء العائلات المعوزة في المجتمعات المحلية الفاقدة للرعاية الاجتماعية والثقافية والعاطفية، للدفع به نحو عملية إرهابية ربما كان هدفه الأول منها أن يموت برصاص فرنسي، ليلتحق بالجنة التي وعده بها شيوخ الضلالة، حيث أنهار اللبن والخمر والعسل وحور العين مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، أم هو إرهابي فعلا ممن يعتبرون أنفسهم مسؤولين عن تغيير العالم والقضاء على من خالفهم الدين والعقيدة، وممن يتخذون من التكفير منهجا، ومن التفجير أداة، ومن سفك الدماء مسارا لتكريس دولة الإسلام واستعادة الخلافة، على أن تكون هذه المرة إخوانية أردوغانية بسمات عثمانية طورانية؟

وإذا كان كذلك، متى تبنى هذا الفكر؟ وأين؟ وكيف؟ ومن كان وراء تجنيده ودفعه إلى قارب الموت من سواحل صفاقس لينطلق إلى إحدى الجزر الإيطالية ومن هناك إلى رحلة الجهاد المزعومة إلى فرنسا؟

مهما يكن من أمر، فإن إبراهيم لم ينفذ الهجوم الإرهابي اعتباطا، ولم تكن فكرة ذبح المصلين المسيحيين بنت وقتها، والشاب الذي كان يحلم بالوصول إلى لامبادوزا لا يمكن أن ينجح بسهولة في عبور الأراضي الإيطالية والوصول إلى نيس الفرنسية بتلك السهولة، خصوصا وأنه لا يتكلم أيا من لغتي البلدين، ومن المفروض أن لا علاقات له فيهما.

بقليل من التروي يمكن أن نقترب من أطوار القضية: فإبراهيم وصل إلى إيطاليا كمهاجر غير شرعي في 20 سبتمبر، أي قبل كلمة ماكرون التي أثارت غضب الإسلام السياسي، والتي كان ألقاها في 2 أكتوبر، وقبل مقتل أستاذ التاريخ الفرنسي صامويل باتي في 17 أكتوبر، وبالتالي قبل الحرب المعلنة من قبل الإسلاميين على فرنسا، وهذا ما يعني أن إبراهيم لم يكن وهو يغادر بلاده مدفوعا بفكرة تنفيذ عملية إرهابية ضد فرنسيين، لغياب الدوافع الموضوعية لذلك.

رحلة إبراهيم من لامبادوزا إلى نيس لم تكن مباشرة، وإنما اتجه من الجزيرة الإيطالية نحو مقاطعة باريس في التاسع من أكتوبر، وكان آنذاك خاضعا لالتزام بمغادرة إيطاليا قبل إطلاق سراحه، سيكون علينا هنا أن نبحث عن سر الأيام التي قضاها الإرهابي قبل دخوله إلى فرنسا بيوم واحد من تنفيذه الجريمة، لندرك من ورائه كيف تحول من حالم بتحسين ظروفه المادية إلى قاتل، فجميع المؤشرات تؤكد أن إبراهيم لم يكن متشددا دينيا، كما أن عمره وتجربته في الحياة لا تسمحان له ببلورة موقف عقائدي يدفع به إلى تنفيذ هجوم إرهابي بذلك الشكل، وبتلك القدرة على الوصول بسهولة إلى تنفيذه هدفه.

عندما ضبطته الشرطة، وجدت لديه هاتفين ومصحفا وسكاكين غير مستعملة، كان يخفيها داخل كيس، ولن يكون من السهل الاقتناع بأنه كان يعبر إيطاليا ويدخل فرنسا وهو يتأبط أسلحة بيضاء، كما لا يمكن القول إنه اشتراها من نيس لأن ذلك كان سيثير ريبة من يبيعه إياها، خصوصا بعد حادثة ذبح أستاذ التاريخ، وهو بالتأكيد لا يريد أن يحرك شكوكا من حوله، وكذلك لقصر المدة التي قضاها في المدينة.

والسؤال هنا: هل تم تجنيد إبراهيم في إيطاليا ليجد من ينتظره في نيس؟ والجواب الأقرب إلى المنطق أن شبكة إرهابية جندته في إيطاليا وأن هناك من رافقه من الأراضي الإيطالية إلى الداخل الفرنسي، وأنه وجد السكاكين وخطة الهجوم لدى شخص كان في انتظاره بمدينة نيس، وأن هذه الأطراف تتحرك في دائرة مغلقة وفي سرية مطلقة، وهي ليست من المجموعات التقليدية والمعروفة كداعش الذي لم يسارع كعادته بتبني الهجوم رغم هجمات سابقة ضد فرنسا، سواء من الداخل أو الخارج، أو تنظيم القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي الذي لديه كذلك تاريخ طويل من المواجهات الدموية مع الفرنسيين.

سيكون علينا أن نعترف بأن الإسلام السياسي في شمال أفريقيا ودول الساحل والصحراء ينظر إلى فرنسا كعدو لدود، الأمر في تونس لا يخرج عن هذه القاعدة، التي يحاول إسلاميون تبرير جانب مهم من عدائهم للدولة الوطنية بما يعتبرونه تبعية لفرنسا وتأثرا بثقافتها العلمانية أو اللائكية من قبل النظام السابق في عهدي بورقيبة وبن علي، وبالنسبة لهم فإن كل ما يناقض مشروعهم الشمولي هو إرث فرنسي بالضرورة، وكل من يتصدى لأيديولوجيتهم هو عميل لفرنسا، وصفحات التواصل الاجتماعي تعج بملايين التدوينات والتعاليق في هذا الاتجاه.

إن إبراهيم العيساوي ليس استثناء وإنما هو قطرة من بحر التطرف الطارئ وشديد الانفجار الذي يتم استغلاله في تصفية الحسابات السياسية وخدمة مشروع لا يزال يتمدد ليشكل تهديدا للجميع

بل إن العداء لفرنسا بات منتشرا على مستويات عدة في مجالات التعليم والإعلام والثقافة والخطاب السياسي والديني، وارتفعت وتيرته من خلال الأبواق الممولة من قطر ونتيجة المواجهة المعلنة بين باريس وأنقرة، ووصل صداه إلى البرلمان بعد أن بات يضم نوابا لم يحتلوا مقاعد تحت قبته إلا بخطاب الكراهية المتمركز أساسا حول ما سمي بالثروات المنهوبة من قبل فرنسا.

إن شابا كإبراهيم العيساوي، نما وعيه الساذج على هذا الخطاب الذي كان يستمع إليه يوميا أو يتابعه عبر فيسبوك، موقع التواصل الاجتماعي الأكثر انتشارا في تونس والمنطقة المغاربية، والذي يحمّل الفرنسيين مسؤولية التخلف والفقر والجهل والمرض والبطالة، ويتهمهم بمعاداة الإسلام ودعم التيارات الحداثية المتهمة بدورها بالعمل على اجتثاث المجتمع من هويته، لذلك وما إن وجد الفرصة مناسبة لتنفيذ عملية "الثأر" حتى اندفع إليها.

تنتشر ثقافة الكراهية بسرعة فائقة في المجتمعات العربية، وتجد أرضا أكثر خصوبة في الفئات الفقيرة والهشة نفسيا واجتماعيا، والخاضعة لعمليات غسيل دماغ يومية من قبل قوى تستغل المجال الواسع من حرية التعبير لتنفيذ أجندات مرتبطة بمحاور إقليمية ودولية، وهذا ما يحدث في تونس التي يرى أغلب المراقبين أن للإرهاب فيها حاضنة سياسية تحاول استثماره في توسيع دائرة نفوذها.

إن إبراهيم العيساوي ليس استثناء وإنما هو قطرة من بحر التطرف الطارئ وشديد الانفجار الذي يتم استغلاله في تصفية الحسابات السياسية، وخدمة مشروع لا يزال يتمدد ليشكل تهديدا للجميع، ولن يتم القضاء عليه إلا بتفكيك الشبكات التي تقف وراءه كما وقفت وراء إبراهيم، واتخاذ موقف حازم من مموليها ومحركيها سواء كانوا دولا أو أحزابا أو منظمات أو مافيات تحارب في إطار الصراع على النفوذ بالمنطقة والعالم.